بالإنجليزية. وكان يَهِيم حبًّا بالمساحات الشاسعة المحيطة بمنزل «بيمبروك لودج»، وهي مساحات تتميز بمناظرها الجميلة المطلة على الأراضي الريفية المحيطة. وجاء فيما كتبه: «كنت أعرف كل ركن من الحديقة، وكنت أبحث كل عام عن زهور الربيع البيضاء في مكانٍ ما، وعن عش طائر الحُميراء في مكانٍ آخر، وعن برعم زهرة الأكاسيا وهو يخرج من خميلة من اللبلاب» (السيرة الذاتية لبرتراند راسل، ص٢٦). ولكن مع دخوله مرحلة البلوغ، أخذت عزلته — الفكرية والعاطفية — تزداد ألمًا. كان وحيدًا بين أسرةٍ من كبار السن متباعدين عنه من كل النواحي. وكان الرابط الوحيد الذي يربطه بالعالم الأكبر هو مجموعة متعاقبة من المعلمين الخصوصيين. ومع ذلك أنقذته الطبيعة والكتب — وفيما بعدُ الرياضيات — من الإحساس بتعاسة جارفة. كان أحد أعمامه يُكنُّ اهتمامًا بالعلوم، وهو ما نقله إلى راسل؛ مما ساعد على تحفيز يقظته الذهنية. ولكن اللحظة الفارقة الحقيقية جاءت حين بلغ ١١ عامًا وبدأ أخوه يعلِّمه الهندسة. صرَّح راسل أن التجربة كانت «مبهرة مثل تجربة الحب الأول» (السيرة الذاتية لبرتراند راسل، ص٣٠). وبعد أن أتقن النظرية الخامسة بسهولة النظريات نفسها التي تسبقها، أخبره فرانك أنها عادةً ما يجدها الآخرون صعبة، وهذه النظرية الخامسة هي «جسر إقليدس» الشهير الذي يضع حدًّا للكثير من الناشئين في دراسة الهندسة. وكتب راسل: «كانت تلك المرة هي أول مرة يتبادر لذهني أنني قد أمتلك شيئًا من الذكاء.» ولكن ما أفسد الأمر هو أن إقليدس يبدأ ببدَهِيات، وحين طلب راسل إثباتها، رد عليه فرانك بأنه لا بد أن يقبلها كما هي، وإلا تعذَّر استمرار المسألة الهندسية. فقبل راسل ذلك على مضض، ولكن الشك الذي ساوره في تلك اللحظة ظلَّ يلازمه، وهو ما حدَّد سياق عمله اللاحق الذي قام على أسس الرياضيات.

عام ١٨٨٨ التحق راسل كتلميذ داخلي بمعهدٍ تابع للجيش مخصص لحشو أدمغة الطلاب بالمعلومات في مدة قصيرة؛ وذلك للاستعداد لاختبارات منحة جامعة كامبريدج. وكانت من المنغصات التي تخللت مدة إقامته هناك ما رآه سلوكًا فظًّا بين بعضٍ من الشباب الآخرين. ومع ذلك نال منحة للالتحاق بكلية ترينيتي، والتحق بها في أكتوبر ١٨٩٠ لدراسة الرياضيات.

شعر وكأنه قد دخل الجنة. وكان ألفريد نورث وايتهيد — الذي تعاون معه فيما بعدُ في كتابة كتاب «مبادئ الرياضيات» — قد نظر في أوراق إجابة راسل في المنحة الدراسية التي حصل عليها، وأوصى به عددًا من الطلاب والمحاضرين الموهوبين؛ ومن ثَمَّ وجد نفسه

بين رفاقٍ يشابهونه إلى حدٍّ كبير، فلم يعد منعزلًا فكريًّا، ووجد أخيرًا سبيلًا إلى الصداقة؛ إذ كوَّن صداقات قوامها الاهتمامات المشتركة والمستوى الذهني المتجانس.

وفي أول ثلاث سنوات أمضاها راسل هناك، درس الرياضيات. وفي السنة الرابعة أصبح منكبًّا على دراسة الفلسفة، ودرس على يد هنري سيدجويك وجيمس وارد وجي إف ستاوت. وكان الفيلسوف الذي يعتنق المذهب الهيجلي، جيه إم إي ماك تاجارت، في ذلك الحين مؤثرًا بين الطلاب والمحاضرين الشباب في كامبريدج. وهو الذي حفز راسل على اعتبار الفلسفة التجريبية البريطانية — ويمثلها لوك وبيركلي وهيوم وجون ستيوارت مِل — فلسفة «غير مكتملة»، وشجَّعه بدلًا من ذلك على دراسة فلسفة كانط وخصوصًا هيجل. وبدافع تأثير ستاوت، أصبح راسل معجبًا بالفيلسوف المعتنق للمذهب الهيجلي القادم من جامعة أكسفورد، إف إتش برادلي، فأخذ يدرس أعماله بعناية، وكانت أعماله تروِّج لصورة من الرأي الفلسفي المعروف باسم «المثالية».

ولكن أكثر من أثَّر في راسل أشد التأثير كان أحد معاصريه الشباب، وكان ذلك هو جي إي مور، وقد بدأ كمعتنقٍ للفلسفة الهيجلية شأنه شأن راسل، ولكنه سرعان ما نبذها، وأقنع راسل أن يحذوَ حذوه. كان برادلي يرى أن كل ما يصدقه المرء بدافع المنطق السليم — مثل التعددية والتغير في عالم الأشياء — ليس إلا مظهرًا خارجيًّا، وأن الواقع ما هو إلا حقيقة ذهنية مطلقة. رفض كلٌّ من راسل ومور هذا الرأي من منطلق حِسٍّ عنيد بالتحرر. ومع أنهما تطورا بعد ذلك بطريقتين مختلفتين، ومع أن راسل بالتحديد حاول بكل جهده البحث عن بدائل مُرضية، فإن العمل الفلسفي الذي أنجزه كلٌّ منهما كان يسلم بالواقعية والتعددية (انظر الفصل الثاني للاطِّلاع على توضيحٍ لهذين المصطلحين).

ولكن التمرد الذي تزعَّمه مور جاء لاحقًا. نجح راسل وصُنِّف بين المتفوقين في امتحانات درجة الشرف بجامعة كامبريدج «ترايبوز» في الرياضيات لعام ١٨٩٣، وكان ترتيبه السابع في امتحانات الرياضيات بجامعة كامبريدج، وصُنِّف بين المتفوقين مع مرتبة الشرف في امتحانات العلوم الأخلاقية «ترايبوز» في العام التالي (كانت العلوم الأخلاقية الاسم الذي يُطلق على مواد مثل الفلسفة والاقتصاد في جامعة كامبريدج). ثم بدأ يكتب أطروحة الزمالة على أسس الهندسة، وذلك على خُطَا كانط الذي كان له التأثير الأكبر على آرائه في ذلك الحين. وإبان تلك الأحداث الحافلة، بلغ سنَّ الرشد، وأصبح لذلك حرًّا ليُقدِم على فعلٍ كان ينتويه على الرغم من المعارضة الشديدة التي أبدتها عائلته، وكان ذلك هو الزواج من أليس بيرسول سميث، وهي فتاة أمريكية من طائفة الكويكرز تكبره بخمس

سنوات، كان قد التقاها وهام بها حبًّا على الفور في ١٨٨٩، مع أنها لم تبادله المشاعر إلا بعد ذلك بأربع سنوات. ورأت عائلة راسل أنها غير مناسبة على الإطلاق، وأخبرته أنه يُستحسَن على أي حالٍ من الأحوال ألا يُنْجِب منها لأن بعض أفراد عائلته كانوا يعانون من الجنون، وبرهنوا على ذلك بالإشارة إلى كلٍّ من عمه ويليام، وكان مقيمًا في مصحَّة للمرضى العقليين، وعمته أجاثا، وكانت تنتابها تهيُّؤات وتزداد غرابة أطوارها كلما تقدمت في السن.

شكل ١-٣: كانت أليس بيرسول سميث — وهي أمريكية من طائفة الكويكرز — أول حبيبة لراسل، التقى بها حين كان في السابعة عشرة من عمره، وتزوجها بعد ذلك بأربع سنوات في ١٨٩٤.[1]

في محاولة لإبعاده عن أليس، اتخذت عائلة راسل ترتيبات لتعيينه ملحقًا شرفيًّا في السفارة البريطانية في باريس. ومما لا شك فيه أنهم كانوا يأملون أن تلبيَ المغريات التي كانت تعجُّ بها باريس في تسعينيات ذلك القرن الدوافع التي كانت تدفعه نحو الزواج. ولكن التربية البيوريتانية المتزمتة التي فرضتها عليه جدته كانت مؤثرةً فيه إلى أقصى

حد؛ وأحبطت تلك التربيةُ الخطةَ، وذلك كما يتَّضِح من الرسائل — وهي نماذج للتزمُّت — التي كان راسل يرسلها إلى عائلته ويشكو فيها من الحياة الباريسية؛ فجاء في رسالةٍ كتبها: «في باريس وجدتُ الجميع يسلكون مسلكًا بذيئًا، وكلما تلفت المرء حوله يرى نماذج لتدنيس الحب، إنهم يجعلونني أرتجف اشمئزازًا.» وما إن أصبح راسل يتحكم في أحواله المالية (كان يتلقى ميراثًا طيبًا قدره ٦٠٠ جنيه إسترليني سنويًّا، وكانت عروسه ميسورة الحال أيضًا) حتى تزوج من أليس، وفي البداية كانا سعيدين.

نال راسل بفضل أطروحته زمالة بحثية بمدة ثابتة في كلية ترينيتي دون أي واجبات مفروضة عليه؛ مما ترتب عليه أنه لم يكن مضطرًّا للتدريس في جامعة كامبريدج أو الإقامة فيها؛ ومن ثَمَّ سافر راسل مع أليس إلى برلين حيث دَرَس الديمقراطية الاجتماعية الألمانية وألَّف كتابًا عنها. كان هذا أول كتابٍ يؤلِّفه، وهو الأول بين كتبه وكتيِّباته الكثيرة إلى حدٍّ استثنائي؛ إذ بلغ عددها ٧١ كتابًا وكتيِّبًا (دون احتساب المقالات التي لا تُحصى) نُشرت إبان حياته. وأثناء وجوده في برلين، خطرت له فكرة إنشاء مشروع بحثي كبير، يضم خطين للبحث — أحدهما يتناول العلوم الطبيعية، والآخر يتناول المسائل الاجتماعية والسياسية — كان من المزمع أن يتضافرا في نهاية المطاف ليُكوِّنا «عملًا موسوعيًّا هائلًا». كان راسل لا يزال متأثرًا آنذاك بالفلسفة الهيجلية، والتي كان مشروع كهذا يتوافق معها؛ ولكن الخطة صمدت أمام التغير الجذري الذي اعترى رأي راسل الفلسفي — وإن لم تتخذ شكلًا منهجيًّا — إذ كتب راسل الكثير فعلًا عن المسائل النظرية والتطبيقية من بين أعماله الكثيرة.

وبعد نشر كتاب «الديمقراطية الاجتماعية الألمانية» بعام، ظهرت النسخة المنشورة من أطروحة الزمالة التي أعدها، وعنوانها «مقال عن أسس الهندسة». ثم نشر راسل في عام ١٩٠٠ كتاب «عرض نقدي لفلسفة لايبنتس». جاء تأليفه لهذا الكتاب بدافع صدفة، ولكنها كانت صدفة مهمة له؛ إذ كان لراسل زميلٌ من كامبريدج ألقى عدة محاضرات عن لايبنتس، وطلب منه ذلك الزميل أن يحلَّ محله لمدة عامٍ واحد، فرحَّب راسل بالفكرة، مع أنه لم يحظَ بفرصة لدراسة أعمال لايبنتس بالتفصيل. ونشأ الكتاب من المحاضرات التي كان يلقيها. كان راسل يختلف مع العقائد الأساسية لفلسفة لايبنتس، ومع ذلك ظلَّت جوانب منها مؤثِّرة في فكره.

إبان الفترة التي كان راسل يلقي خلالها محاضرات عن لايبنتس، أقنعه مور بالتخلي عن مذهب المثالية. وبعدئذٍ بمدة وجيزة اكتسب اهتمامه بفلسفة الرياضيات — وخصوصًا

بمسألة ما إذا كان من الممكن إضافة أسس منطقية للرياضيات — قوةَ دفْع كبيرةً بفضل لقائه مع عالِم المنطق الإيطالي جيوسيبي بيانو في المؤتمر العالمي للفلسفة في باريس في يوليو عام ١٩٠٠. كان بيانو قد أنجز تطورات فنية معينة في المنطق، وهو ما أوحى لراسل بطرقٍ لتنفيذ الخطوة المرجوَّة، وهي إخضاع الرياضيات للمنطق. وأخذ يقرأ أعمال بيانو بِنَهَم، ثم بدأ يُحسِّن المناهج الواردة فيها ويوسِّعها ويطبِّقها. وفي فورة اهتمامه، وفي غضون بضعة أشهر فحسب، كتب مسودة كاملة للنقاط التي من المقرر أن تُبرهِن على أُولى أطروحاته الكبرى؛ كتاب «مبادئ الرياضيات». وانشغل بالمراجعات والتحسينات لمدة عامٍ آخر، ثم نُشر الكتاب في عام ١٩٠٣. وحين كتب راسل تمهيدًا لطبعة جديدة في عام ١٩٣٧، ذكر أنه ظلَّ مقتنعًا بصحة الفرضية الأساسية للكتاب؛ وهي «أن الرياضيات والمنطق متطابقان».

إن النشوة الفكرية التي شعر بها راسل في عام ١٩٠٠ لم تعاوده بعدها قط؛ وذلك لأن الأحداث التي وقعت في حياته الشخصية أثناء السنوات اللاحقة ألقت بسحب سوداء على عمله؛ إذ اكتشف أنه فَقَدَ حُبَّه لزوجته، وأخبرها بذلك. كتب فيما بعد: «كنت أرى في تلك الفترة (لست واثقًا من ماهية التجربة التي علمتني أن أفكر بهذه الطريقة) أن المرء يجب أن يصرح بالحقيقة في العلاقات العاطفية.» (السيرة الذاتية لبرتراند راسل، ص١٥١). وتسبَّب ذلك في بؤس جارف لكلٍّ منهما في غضون السنوات التسع اللاحقة التي عاشا فيها تحت سقف واحد. وفي الوقت نفسه تقريبًا كانت تعتمل ثورة في حياته العاطفية حين شهد معاناة المرض التي تعرضت لها إيفيلين وايتهيد زوجة معلمه السابق ألفريد نورث وايتهيد؛ فحين رآها في العزلة الشديدة التي يكابدها من يعاني الجزع، تغيَّرَتْ نظرته للعالم فجأة؛ وكانت تلك هي اللحظة التي أخذ يؤرخ منها لاحقًا بدْء مناهضته للحروب وتَوقه للأطفال، وبدايات ارتفاع إحساس مرهف من حيث تذوق الجمال، وظهور إحساس عميق بأن كلًّا منَّا قدَرُه أن يكون وحيدًا في نهاية المطاف. وقد أورد في سيرته الذاتية وصفًا مؤثرًا لتلك التجربة.

وعلى صعيد عمله في مجال الرياضيات — الذي كان من الممكن أن يمنحه السلوى — حدث تغيُّر جذري خطير مشابه، وهو أن راسل اكتشف تناقضًا في صُلب المشروع الذي كان يحاول تنفيذه. يأتي وصفٌ للتناقض وأهميته في المكان المناسب في الفصل الثاني أدناه. وبسبب تأثير ذلك التغيُّر توقَّف عمل راسل لمدةٍ تزيد على عامين، كان يحدِّق خلالها في صفحة بيضاء وهو لا يدري كيف يبدأ. وفي هذه الفترة كان منشغلًا

بكتاب «أصول الرياضيات»، وهو كتاب ألَّفه بقصد أن يكون جزءًا ثانيًا لكتاب «مبادئ الرياضيات». وكان من المقرر أن يحتويَ هذا الجزء الثاني المفترض على التفاصيل الفنية للأفكار الواردة باختصار في كتاب «مبادئ الرياضيات»، إضافةً إلى معالجةٍ أشمل لعددٍ من الصعوبات التي لم يتناولها الكتاب الأول؛ ولكن سرعان ما اتَّضَح أن راسل يحتاج لما هو أكثر من ذلك لإنجاز هدف المشروع، وهو «إثبات أن كل الرياضيات البحتة تنبع من مقدمات منطقية بحتة ولا تستخدم إلا المفاهيم القابلة للشرح بالحدود المنطقية» (تطوري الفلسفي، ص٥٧). ولذلك طلب راسل تعاون وايتهيد معه في الكتاب، ومنذ ذلك الحين وحتى عام ١٩١٠ كرَّس راسل جُلَّ طاقاته الذهنية لإنتاج هذا العمل البارز. كان راسل مسئولًا عن الجوانب الفلسفية للكتاب وصياغته الفعلية انطلاقًا من المادة الفنية؛ وقدَّم وايتهيد إسهامات مهمة من حيث استخدام مجموعات الرموز، وأسهم بقدرٍ كبير في استنباط البراهين، وذلك من بين نواحٍ أخرى.

يروي راسل أنه كان يعمل في كتاب «أصول الرياضيات» لمدة ثمانية أشهر كل عام، بمعدلٍ يتراوح بين عشر ساعات واثنتي عشرة ساعةً يوميًّا. وعند تسليم المخطوطة أخيرًا لمطبعة جامعة كامبريدج كانت هائلة الحجم، حتى إنه كان لا بد من نقلها إلى هناك على عربة حصان بأربع عجلات. واحتسب موظفو المطبعة أن الكتاب سيُنزِل بهم خسارة قدرها ٦٠٠ جنيه إسترليني، وقالوا إنهم مستعدون لتحمُّل نصف ذلك المبلغ فقط. فأقنع راسل ووايتهيد الجمعية الملكية بمساعدتهما بالتصويت لصالح منحة مقدارها ٢٠٠ جنيه إسترليني، ولكن كان لا بد من دفع المبلغ المتبقي من جيبَيهما. وهكذا، كانت المكافأة المالية التي عادت عليهما بعد سنوات من العمل في هذا المشروع الهائل هي تكبُّد خسارة قدرها ٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا لكلٍّ منهما.

ولكن المكافآت الحقيقية كانت عظيمة؛ ففي أثناء إنجاز هذا الكتاب، وانطلاقًا منه، نشر راسل بعض الأبحاث الفلسفية المهمة للغاية. وانتُخب زميلًا للجمعية الملكية وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، وكان ذلك أمرًا استثنائيًّا. ورسَّخ مكانته في تاريخ المنطق والفلسفة. وتحقَّق الكثير مما باشره وأنجزه راسل فيما بعدُ في مجالات أنشطته الكثيرة بفضل نيله للمنزلة الرفيعة التي منحه إياها تأليفه لكتاب «أصول الرياضيات».

لم يستسلم راسل للخمول في المناحي الأخرى إبان سنوات الكَدْح الفكري هذه؛ إذ ظل اهتمامه بالسياسة نشطًا؛ فكان يدافع عن حرية التجارة، ورشَّح نفسه للبرلمان متبنيًا قضية منح حق التصويت للنساء في الانتخابات الفرعية في دائرة ويمبلدون لعام ١٩٠٧.

وكانت قضية منح حق التصويت للنساء قضية لا تحظى بقَبول على الإطلاق، وكان المدافعون عنها يتعرَّضُون للإساءة بل والعنف بصفة دائمة. وكان من الممكن أن يدخل راسل البرلمان في آخر الأمر لو لم يقف إلحاده في طريق ذلك؛ إذ كان في سبيله إلى الترشُّح عن دائرة بدفورد في انتخابات عام ١٩١١، ولكن حال دون ذلك معرفة منظِّمي حملته الانتخابية بأنه يرفض إخفاء إلحاده عن الناخبين، وأنه يرفض التوجه إلى الكنيسة؛ ومن ثَمَّ اختاروا مرشحًا آخر.

ولكن سنحتْ فرصة تناسبه أكثر بكثير بعد ذلك؛ إذ عيَّنته كلية ترينيتي في وظيفة محاضر لمدة خمس سنوات؛ فسلك راسل حياة المحاضر، ووجَّه انتباهه إلى تأليف كتاب صغير أصبح من الكتب المرموقة، وهو كتاب «مشكلات الفلسفة»، ويظل هذا الكتاب حتى اليوم من أفضل المقدمات القصيرة إلى هذا الموضوع.

كانت العلاقات العاطفية من النتائج غير المتوقعة لأنشطة راسل السياسية؛ ففي عام ١٩١٠ وأثناء إقامته بالقرب من جامعة أكسفورد، كان يساعد في حشد تأييد الناخبين للمرشح المحلي فيليب موريل، وكانت زوجة موريل الليدي أوتولين موريل من معارف راسل في طفولته. وتطوَّرت علاقتهما على مَرِّ العام التالي، وتحولت إلى علاقة غرامية. كان راسل يتمنى الزواج منها، وهو ما كان يستلزم طلاقه من أليس وطلاق أوتولين من فيليب. ولكن أوتولين لم تكن ترغب في ترك فيليب؛ ولذا ظلت علاقتهما علاقة زنًا، وتقبَّل فيليب علاقتهما، ولكن العلاقة لاقت معارضة شديدة من أليس وأسرتها. انفصل راسل وأليس في أوائل عشرينيات القرن العشرين، مع أنهما كانا منذ وقتٍ سابقٍ على هذا في حكم المطلَّقَين، ولم يلتقيا ثانيةً طوال ٤٠ عامًا.

كانت أوتولين مناسبة لراسل قطعًا. وكتب عنها راسل: «كانت تضحك عليَّ حين كنت أتصرف كمحاضر جامعي أو متزمِّت، وحين كنت أستبدُّ برأيي في الحديث. وشَفتْني تدريجيًّا من الاعتقاد بأنني أفيض بفجور شنيع لا يمكن كبحه إلا بقبضة حديدية من ضبط النفس. وساعدتني على أن أقلِّل من أنانيتي واعتدادي بنفسي وبآرائي» (السيرة الذاتية لبرتراند راسل، ص٢١٤).

وهكذا وفَّرت له إشباعًا لدوافع تذوُّق الجمال لديه، سواء بذاتها أو بالجمال البديع لكل ما يحيط بها. كان راسل يبلغ حينئذٍ نحو ٤٠ عامًا؛ أي إنها كانت صحوةً متأخرة ولكنها عميقة الأثر.

وفي عام ١٩١٤ زار راسل الولايات المتحدة، وألقى محاضرات في جامعة هارفرد، وذلك من بين أماكن أخرى. ونُشرت محاضراته فيما بعدُ في كتاب «معرفتنا بالعالم الخارجي».

شكل ١-٤: الليدي أوتولين موريل (١٨٧٣–١٩٣٨)، رسمها أغسطس جون عام ١٩٢٦؛ لوحة زيتية على قماش.[3]

وكان تي إس إليوت من بين تلاميذه في جامعة هارفرد، وكتب إليوت قصيدة عنه بعنوان «السيد أبوليناكس»، وصوَّره فيها على أنه كائن أسطوري غريب بل ومفزع، قد يتدحرج رأسه المزين بأعشاب البحر فجأة تحت مقعد أو يقفز وهو يبتسم فوق حجاب مصباح؛ صوَّره على أنه يضحك — حسبما يقول إليوت: «مثل جنين مستهتر.» ومع ذلك فإن «حديثه القوي الحماسي» يستهلك كل فترة بعد الظهيرة، مذكرًا إليوت بوقع حوافر وحش القنطور الخرافي فوق أرض صُلبة. ترك لقاء إليوت براسل انطباعًا قويًّا عليه؛ أما عن غيره من الحاضرين، فلم يتذكر إلا أنهم كانوا يأكلون شطائر الخيار.

أثناء زيارة راسل لشيكاجو أحبَّ ابنة مضيفه — ولا يرد اسمها في السيرة الذاتية — وكانت آنذاك طالبة في كلية برين مور. وأعدَّا العدة كي تلحق به في إنجلترا حتى يتمكَّنا من الزواج بعد أن يطلِّق أليس. وقد سافرت الفتاة فعلًا، ولكن الحرب العالمية الأولى كانت

قد اندلعت في ذلك الحين؛ مما أصاب راسل بصدمة نفسية، لكن مشاركته الحماسية في الأنشطة المناهضة للحرب أدَّت إلى محو مشاعره تجاهها. وتفاقمت كارثة زيارتها إليه بإصابتها بالجنون. ويسرد راسل في سيرته الذاتية هذه القصة القصيرة المحزنة بندمٍ ملؤه الألم.

شكل ١-٥: كتب تي إس إليوت (١٨٨٨–١٩٦٥) — أحد طلاب راسل في جامعة هارفرد — قصيدة عنه بعنوان «السيد أبوليناكس»، ويظهر فيها كمخلوق أسطوري رأسه مزين بالأعشاب البحرية وله حوافر قنطور.[4]

كان رد فعل راسل على اندلاع الحرب معقَّدًا؛ إذ كانت سِنُّه كبيرة؛ فلم يكن من الممكن أن يصبح محاربًا؛ لذلك لم يكن قط في موقف الرافض للخدمة العسكرية لأسباب أخلاقية. (ترك عددٌ من معارفه ممن اتخذوا هذا الموقف — مثل ليتون ستارشي — واجباتهم الزراعية الإجبارية وراحوا يمضون وقتهم في عزبة أوتولين في جارسينجتون.)

وشأنه شأن الكثير من المثقفين الذين عاصروا عهد الملك إدوارد، كان راسل يُكِنُّ ضعفًا تجاه ألمانيا والثقافة الألمانية. كان يتحدث الألمانية بطلاقة، وكان يقرأ الكتب الألمانية بحكم الطبع، وسبق له أن أقام هناك وكتب عن السياسة الألمانية. ولكنه كان أيضًا وطنيًّا متحمسًا؛ إذ كتب ذات مرة أن «حب إنجلترا يكاد يكون أقوى عاطفة أمتلكها.» ولم يكن كذلك من مناهضي الحروب مناهضةً مطلقة؛ إذ إنه أيَّد الحرب ضد النازية أشدَّ التأييد بعد ذلك بربع قرن. وكان يرى أن اندلاع الحرب في عام ١٩١٤ لم يكن بدافع مبدأٍ معين، وأن الحرب لم تكن تبشر بأي فوائد، بل إن حماقة السياسيين هي التي تسبَّبت فيها، وإنها تهدد بالزجِّ بالحضارة في فوضى عارمة تضيع فيها حياة الشباب سُدًى. وكتب في رسالة موجَّهة إلى الأمة عقب اندلاع القتال: «كل هذا الجنون وكل هذا الغضب وكل هذا الموت المشتعل الذي أصاب حضارتنا وآمالنا، تسبَّبتْ فيه مجموعة من المسئولين الرسميين الذين يعيشون حياة مرفهة، ومعظمهم أغبياء، وكلهم مجرَّدون من سعة الخيال والعاطفة، واختاروا أن تندلع الحرب بدلًا من أن يتحمل أيٌّ منهم أي انتقاص ولو بسيطًا من كرامة بلاده.»

كانت بصيرة راسل بشأن الحرب ثاقبة في ذلك الوقت، تمامًا مثلما كانت حيال حرب فيتنام التي اندلعت بعد ذلك بنصف قرن. لم تكن المجازر الفظيعة التي راح ضحيتها الجنود في الخنادق قد بدأت بعدُ، ومع ذلك رأى راسل أنها محتومة، وأن عواقبها بشعة على المدى الطويل. لم يستطع سوى القليلين حينئذٍ أن يتنبَّئُوا بأن هناك عملية عسكرية قد بدأت ومُقدَّر لها أن تستدرج معظم العالم في حربٍ فعلية أو كامنة لبقية القرن، وسينتج عنها سقوط عشرات الملايين من الضحايا، وتوجيه الموارد الهائلة توجيهًا خاطئًا إلى تطوير التكنولوجيا العسكرية، كل خطوة جديدة في تطويرها أخطر وأشدُّ فتكًا من التي تسبقها. لم يستطع راسل بالطبع أن يتنبَّأ في عام ١٩١٤ بالبلشفية والنازية والمحرقة النازية (الهولوكوست)، والأسلحة النووية والحرب الباردة، والنزعة القومية التي زادت من غلوائها تجارة الأسلحة العالمية، والأصولية التي حفزتها الفجوة المسببة للغيرة القائمة بين الدول الغنية والفقيرة. ولكن كان لديه حسٌّ يقظٌ أوحى له بأن اندلاع الحرب معناه أن الأبواب انفتحت على مصاريعها لكارثةٍ من نوعٍ ما؛ وأتت عقود طويلة من الكوارث كما توقَّع تمامًا.

روَّعه أيضًا الدعم الشعبي للحرب في البلدان المشاركة في الحرب، وما اتَّسمت به من طابع «البربرية البدائية» وإطلاق العنان «لغرائز الكراهية والتعطش للدماء»، وهي

العناصر نفسها — كما أشار هو — التي جُبلت الحضارة على مناهضتها. وكان أسوأ ما في الأمر هو ظهور هذه الانفعالات نفسها على غالبية أصدقائه ومعارفه. لم يستطع راسل الوقوف مكتوف الأيدي؛ فطوال سنوات الحرب كان يكتب مقالاتٍ ويُلقي خُطبًا، يؤيد فيها المعارضة المنظمة للحرب في صورة اتحاد القيادة الديمقراطية وجماعة لا للتجنيد. وفي بداية الحرب أخذ يؤدِّي أنشطة خيرية فيما بين الألمان المقيمين في إنجلترا ممن أصبحوا معوزين بعد أن تقطعت بهم السبل عن بلادهم. ولم تستمرَّ الحاجة إلى أداء هذه الأنشطة الخيرية طويلًا؛ نظرًا لأن مواطني البلدان المعادية سرعان ما جرى اعتقالهم ووضعهم رهن الإقامة الجبرية.

كان قائد جماعة لا للتجنيد شابًّا يُدعى كليفورد ألين (وأصبح فيما بعدُ اللورد ألين أوف هيرتوود)، وكان قد سُجن أكثر من مرة لرفضه التخلِّيَ عن نشاطه في مجال مناهضة الحرب. وفي إحدى محاكمات ألين، التقى راسل بالليدي كونستانس ماليسون، وهي ممثلة كان اسم شهرتها هو كوليت أونيل، وكانت تشارك في النشاط المناهض للحرب هي الأخرى، وكانت تقضي أمسياتها في المسرح وتقضي ساعات النهار في مَلء المظاريف في مكاتب الجماعة. أصبح الاثنان عشيقَين؛ إذ وجد راسل في هدوئها ملاذًا يهرب إليه من قسوة الصراع إبَّان زمن الحرب.

وقع راسل عدة مرات تحت طائلة القانون لنشاطه المناهض للحرب؛ ففي عام ١٩١٦ رُفعت عليه دعوى قضائية بسبب مقالٍ كتبه، وحُكم عليه بدفع غرامة قدرُها ١٠٠ جنيه إسترليني. ولكنه رفض الدفع؛ فقضت المحكمة بالحجز على متعلقاته، ولكن أصدقاءه كانوا كرماء فاشترَوْها وأعادوها إليه؛ مما أبطل تأثير الموقف الذي اتخذه. وبعدئذٍ مُنع من دخول أي منطقة عسكرية في بريطانيا، وخصوصًا أي منطقة ساحلية (وافترض هو ساخرًا أن السبب في ذلك هو منعه من إرسال إشارات للغواصات المعادية). ورفضت السلطات منحه جواز سفر حين حاول السفر إلى أمريكا في عام ١٩١٦. وفي عام ١٩١٨ سُجن لمدة ستة أشهر بسبب مقالٍ كتب فيه أن القوات الأمريكية القادمة إلى أوروبا قد تُستخدم في فضِّ الإضرابات، وهي مهمة سبق أن نفَّذتها القوات الأمريكية في بلادها. وبفضل علاقاته الاجتماعية (أقرَّ متهكمًا أنه من المفيد أن يكون المرء أخًا لإيرل) وضعوه في الشعبة الأولى من السجن؛ أي إنه كان يقيم في زنزانة مخصصة له وحده، وكان يُسمح له بالاحتفاظ بكتب؛ ومن ثَمَّ كان يقرأ ويكتب، وأنتج كتابًا واحدًا — «مدخل للفلسفة الرياضية» — وبدايات كتابٍ آخر — «تحليل العقل» — إضافةً إلى عددٍ من العروض

النقدية والمقالات. وأُطلق سراحه في سبتمبر من عام ١٩١٨، وذلك حين أصبح من الواضح أن الحرب شارفت على أن تضع أوزارها.

تسببت أول معركة قصيرة خاضها راسل مع القانون في إنزال عقوبة إضافية به. كان كل المحاضرين الشباب في كلية ترينيتي قد ذهبوا للمشاركة في الحرب؛ فتولى مسئولية شئون الكلية حفنةٌ من الرجال الأكبر سنًّا. وكان هؤلاء يشعرون بعداء شديد تجاه نشاط راسل المتعلق بالحرب. وحين علموا بإدانته، أجرَوْا تصويتًا لحرمانه من منصبه كمُحاضر. وشعر عالم الرياضيات جي إتش هاردي بالاستياء من معاملة راسل بهذه الطريقة؛ فكتب فيما بعدُ سردًا لما حدث. وحين عاد المحاضرون الشباب بعد أن وضعت الحرب أوزارها، أجرَوْا تصويتًا لإعادة راسل إلى منصبه، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت اهتمامات راسل تُوجهه إلى خارج البلاد.

من بين التغيرات الجمة التي انتابت راسل بسبب الحرب اتساعُ مدى نشاطه الأدبي؛ فقد أنتج كتابَين غير فلسفيَّين إبَّان هذه السنوات، وهما: كتاب «أسس لإعادة البناء الاجتماعي» (وكان عنوانه في الولايات المتحدة «لماذا يحارب البشر؟») ونُشر في عام ١٩١٦، وكتاب «الطريق إلى الحرية»، ونُشر في عام ١٩١٨، وكان هذان الكتابان باكورة كتبه الأخرى الرائجة التي تتناول مسائل اجتماعية وسياسية وأخلاقية. كان راسل يُلقي محتويات كتاب «مبادئ إعادة الإعمار الاجتماعي» كسلسلة من المحاضرات في عام ١٩١٦، وفي تلك الأثناء التقى راسل بدي إتش لورانس وبدأ معه في ما كان يُفترض أن يصبح مشروع تأليف كتاب مشترك، ولكن سرعان ما أصبح أسلوب لورانس عدائيًّا. في البداية انزعج راسل انزعاجًا شديدًا من اتهامات لورانس الموجَّهة إليه بأن نشاطه المناهض للحرب كان قناعًا يُخفي مشاعر عنيفة من كراهية البشر؛ لأنه كان يظن أن لورانس كان يتمتع بفهم عميق للطبيعة البشرية، ولكن رسائل لورانس ذات اللهجة المسعورة واللاذعة، والتي أخذت تتزايد حدتها، جعلت راسل يكتشف ميول لورانس السياسية الفاشية وعبادته للفلسفة اللاعقلانية، وانقطعت الصلة بينهما.

حين كان راسل في السجن في عام ١٩١٨، عكف — كما ذكرت — على تأليف كتابَين فلسفيَّين. ولكن عودته إلى الفلسفة كانت قد بدأت قبل ذلك؛ إذ إنه ألقى سلسلة من المحاضرات في الشهور الأولى من عام ١٩١٨ بعنوان «فلسفة مذهب الذرية المنطقية»، ونُشرت بعد ذلك بمدة قصيرة في أعداد متعاقبة من دورية اسمها ذا مونيست. وبكرمه المفرط المعروف عنه، نسب راسل أفكاره للودفيج فيتجنشتاين، الذي تتلمذ على يديه لمدةٍ